نظرات ثاكرى[1]

ـ ٢٣ ـ

وليام مكبيس ثاكرى القصصى الإنجليزى الشهير، قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الإنسانية. والنفوس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء؛ لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التى سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس.

وقد رأى بعض المفكرين أن هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تتبدَّل وأن النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلطف من حدتها أصابها الضرر والعجز. ومع ذلك فإن المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملاً أن تتخلص منها أو تلطف من حدَّتها. ولا أذكر أكان مينكين الأمريكى هو الذى وصف الإنسان فسماه القِرد الأبدى لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى، ولقصوره عن الأخذ بأسباب تعميم نتاج العلم وتعميم الاستفادة منه. ولولا أن الكاتب يؤمن فى صميم نفسه أن الإنسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مئونة وصفها. وبالرغم من أن ثاكرى قد يؤلم مبضعه فى شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطبيب إذا فصد الدُّمَّل فإنه كثير الحنان والعطف على النفوس، فهو يجمع بين السخر والحنان. وهو بين الإنجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصيين الفرنسيين. وكما اشتد ثاكرى فى نقد سخر سويفت فى كتابه المسمى (كتّاب الفكاهة) اشتد بعض الكتاب فى مؤاخذة ثاكرى، ولكن شتان بين سويفت وثاكرى، فليس فى سويفت حنان ورقة وعطف كما فى ثاكرى

(١) المقتطف، يوليو سنة ١٩٥٠.

فإن سخر ثاكرى مقرون إلى رقة وسماح وصفح جليل، ولو أنه قد يشتد فى بعض قصصه ورسائله ويعنف. وبعض قصصه لاترى فيها مايسمى فى اصطلاح المؤلفين أبطالاً. ولا يغيب عنا أن ثاكرى وزميله ديكنز من كتاب العصر الفكتورى، أى عصر الملكة فكتوريا، وهو عصر مشبع بمظاهر التزمت والكبر فى التزمت، ولكن ثاكرى لايعفى ذلك العصر من سخره، ولا يعفى مافيه من نفاق وتجبر وقسوة، كما لم يُعف المحتالين والمغامرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتورى. وبعض النقاد يرون أن قصة (سوق الغرور) هى أعظم قصصه. وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية. ولكن عندى أن أعظم قصصه هى قصة (هنرى إزموند) التاريخية، وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبرى فإن لها سحراً عجيباً، والفن الذى يقتضيه وصف بياتركس وأمها من غير زلل فنٌّ من أعجب الفنون، ثم إن عظم موضوع القصة إذا أضيف إلى عظم الفن يزيد فى قدر القصة، ولو أن إجادة صاحب الفن لاتقتضى موضوعًا كبيراً كى يجيد، ومن قصصه الأخرى قصة (بارى لِندُن) و (الفرجينيين) إلخ إلخ. ومن كتبه كتاب (الرسائل الدائرة) وهى أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات فى وصف الناس وكتاب (الأدعياء) إلخ إلخ.

وفيما يلى بعض نظراته مع الشرح والتعقيب:-

١ - كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة وذكائها (أو من أخلاقها) إذا كانت أعظم منهنَّ جمالا وأتم حسنًا ولم يستطعنَ انتقاص حسنها، كأنما يردنَ بانتقاص عقلها ألا ترجحهنَّ بمجموع ما وُهِبَتْ من ذكاء وجمال. وهذا عكس ما يفعله الرجال، فإن ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تغتفر لها حماقة كثيرة، وقلة عقلها تكتسب فيها رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها - والواقع أن الإنسان كثيراً مايخدعه انتظام التقاطيع فَيَحْسَبُ أنه مقرون دائمًا إلى انتظام العقل والعكس بالعكس.

٢ - فى سوق الغرور التى هى الحياة قلما يتألم الإنسان من وخز ضميره إذا عمل شرا، وإنما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لافتضاح أمره وانكشاف سره وشره، فيخلط ضميره عَمداً بين نوعى الندم؛ كى يظهر بمظهر

الأبرار، أو كى يقال إنه كفَّر بالندم ووخز الضمير عما ارتكب من الشر. وقد يكون الرجل نفسه مخدوعًا بما يخدع به غيره، فإن الشعور يُلَبِّسُ على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثَرَة وحب الذات.

٣ ـ لو فطنَّا إلى ماقد يخالط أنبل الأخلاق وأسماها من نقص أو دناءة لتركنا التفاخر والتباهى بالفضائل ووصلنا النفوس بالعطف والرحمة.

٤ ـ إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوعًا من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لاتنمو فيها بذور أقوال الخير الرقيقة؟ ومما لاشك فيه أن اغتياب الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والإقبال والائتناس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنك فى الحالة الأولى تطهيهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم.

٥ ـ أىُّ الصفات نالت أعظم مدح منذ عهد حرب تروادة إلى اليوم؟ أليست هى الشجاعة والجرأة والإقدام؟ فقد طالما أشاد بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى، ولم يعيروها اهتمامًا كاهتمامهم بهذه الصفات. ألا يجوز أن يكون السبب أن الإنسان جبان بطبعه يجنح إلى الخوف والفزع أكثر من جنوحه إلى قلة المبالاة والإقدام صيانة للحياة واعتزازًا بها، فيغطى على ذلك بمدح الشجاعة كى يقال: إنها صفته الغالبة ويطرى الشجعان كى يقال عنه: إنه منهم. ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضًا أنه يريد أن يحمل نفسه عليها، ويغطى عنها مخاوفها، كما غطاها عن الناس.

٦ ـ بعض النساء لهنَّ ولع بأن يضعنَ من يحببنَ فى مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنيين فى المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء، سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة، وهذا يضايق الرجل؛ لأنه يلزمه صفات الكمال دائمًا وهو لايستطيعها. فيمل كما يمل (الدايلى لاما) فى التَّبتِ ويتثاءب من عبادة عباده.

٧ ـ قلما يهم الناس كبر عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما يَهمُّهُم آدابه المريحة فى معاشرتهم إياه وسلوكه فى إرضائهم؛ لأن كل إنسان يأنس إلى ما يريحه. وأما رجاحة تفكير المعاشر وعظم فضائله فكثيرًا ما تضايق عشيره؛

ولذلك كثيرًا ما تضايق عشيره؛ ولذلك كثيرًا ما يحكم الناس على عقل الرجل وفضائله بما يريحهم أو بما لايريحهم فى سلوكه معهم ـ أو حتى بما يتخيلون أنه يريحهم أو لايريحهم.

٨ ـ إن بعض الناس لا ينالون الاطمئنان فى الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد أن العدل يطرأ فى الحياة ويعم ـ فهل يطرد العدل فى حياة الناس؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول؟ وهل الأول عادل والثانى ظالم. وهل الفضل دائمًا مُفضَّل والنقص دائمًا مؤخر؟ وهل المرائى المنافق دائمًا مخذول؟ وهل ينصرف الناس عن التهافت على مالا قيمة له من الكتب والأشياء والأمور؟ وهل هم لايقبلون على الخطيب المهرّج الماهر؟؟ وهل لا يُرقى الرجل ولا يُقدَّم ولا ينجح إلا بماله من عقل وفضل وهمة وكفاية؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة. وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلاّ بالأكاذيب.

٩ ـ قلما ينال الإنسان خيرًا إلاّ وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه؛ ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجحد الجميل المصنوع؛ إذ قلما تعد نعمة المتفضل تفضُّلا منه، بل حقا واجبًا لمن نالها. وفى بعض البيئات المنحطة لايكتفى نائل المعروف بغمطه وجحده، بل يتعاظم على من صنع المعروف أو يحقد عليه فى سريرته؛ كى يظهر له إنه إنما أخذ بعض حقه وأنه أكبر وأعظم من أن يقرَّ لأحد بفضل عليه.

١٠ ـ لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء، وأن يكتب كتابًا فى تاريخ الشر والضر اللَّذَيْنِ صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتابًا عجيبًا ممتعًا واعظًا للناس، فَمن الذين أحرقوا البروتستانت؟ إنهم فضلاء الكاثوليك. ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك؟ إنهم فضلاء البروتستانت. ومن الذين يضطهدون الناس فى الحياة الاجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويصفونهم بصفات السوء ويدعون الناس إلى اضطهادهم وإيذائهم ويجدون لذة فى ذلك؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس أنهم أفضل من غيرهم. ومن هى التى تتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد

من سيئاتهم، أو ما لاتعتقد، ولتستخرج سيئات أجدادهم إلى الجد الرابع أو أكثر وأبعد من الجد الرابع لكى تؤذيهم بنشر السوء عنهم؟ إنها السيدة الفاضلة ـ أو التى تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة. وهى إذا عثر الحظ السيئ بإنسان وجندله أمامها فى الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاظمًا وتعاليًا وجمعت ثيابها كى لا يلوّثها العاثر المسكين ـ وإن كان من المحال أن يلوّثها وهرولت صارخة باشمئزاز من حظه العاثر السيئ مبتعدة عنه..... حقا إننا فى حاجة إلى كتاب فى تاريخ جرائم الفضلاء!

١١ ـ إن الإحسان طعام عسر فى الهضم. ومن أجل ذلك قد يختلق من ناله مذمة للمفضِل إذا لم يجد فيه مذمة كى تكون عذرًا له إذا فك عن نفسه مايعده أغلالاً وأصفادًا للمعروف... ترى هل كان المسافر الذى نجاه السامرى من اللصوص ـ فى قصة الكتاب المقدس ـ شاكرًا لمن نجاه من اللصوص؟ أم أنه كان يجد غضاضة فى أن يكون مَدينًا لإنسان بفضل عليه؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامرى عقيدته فيها انحراف فى نظره؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كى يجحد ما أداه إليه من معاونة وكى يتقحم عليه بالذم كى يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله؟

* * *

نظرات ثاكرى

ـ ٢٤ ـ

١٢ ـ إن ألفاظ السباب إذا صارت سنة جارية فى البيئة وتعودّها الإنسان كانت أمرًا مألوفًا، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره، فيصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم فى مثل هذه البيئة نوعًا من السماحة والكرم الحاتمى ودليلاً على الألفة والمودَّة ـ ولكن من الغريب أن العشيرين فى هذه البيئة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة فى مجلس وفى مجلس آخر قد تؤدى الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب إلى إراقة الدماء والقتل.

١٣ ـ ليس من السهل أن نعرف الحد الذى عنده ينتهى باعث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقة حاله وتجمُّله صونًا للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله، وهو الحد الذى يبتدئ عنده النفاق المرذول، فكم من أناس ينفقون فى المظاهر ويبذلون للكماليات ماهو أحق بالإنفاق على الضروريات ـ ويرون سعادتهم فى هذه الخطة كى يستطيعوا الزهو والكبرياء، وتعيير من لايستطيع الإنفاق فى سبيل الكماليات، وليحسب الناس أنهم إنما ينفقون فى الكماليات عن سعة فى الرزق، وكى يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة فى الإنفاق على الكماليات وهو محتاج إلى الضروريات. والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزّهو والمباهاة المؤسسة على الباطل.

١٤ ـ إن نصف آلام المحب إذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشئ من الغرور والعُجْب بالنفس، لا من الرقة والحنان وطيب القلب. ولكنه يخلط بين أثَرَته وطيب قلبه وحنانه، وقد يفعل ذلك مخدوعًا بإحساسه وهو لايدرى، كما يُخدَع

به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور، فيكون فى انخذاعهم وخداعهم للقارئ شيء من السماحة إذا فطن القارئ.

١٥ ـ بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاءِ طالع يُمن، ولكنهم بالرغم من ذلك إذا أصاب صديق سوءًا وحلّت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الإشفاق عليه من شقائه الذى حلَّ به بعد أن كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه. فالنفس الإنسانية قد تجمع بين مرارة الحسد وحلاوة العطف، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة فى الحزن والمصاب. فإن أحقاد المنافسة قد تختفى فى نفس المرء عندما يعثر الحظ بمُنافسيه، فيظهر له كرم المشاركة فى الحزن (إمَّا خالصًا وإما ممزوجًا بشيء خفى من التّشفِّى والارتياح) فرأفة الشهامة وخسة الدناءَة قد تجتمع فى النفس الواحدة وقد تمتزج فيها.

١٦ ـ قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق فى أن يغتاب صديقه، ثمَّ يتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود إذا اجتمعا (وقد يسمع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قُبيلَه شتم الآخر له، فيدعى أنه لم يسمع ـ ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلاقى مقتًا وعداءً، كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرَّر مفروض معروف، ألا وهو حقهم فى اغتياب معاشرهم وزميلهم، وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعًا ألا يتنازل غيرهم فتلحقهم الخسارة، ويحل بهم الغبن، وينقلبون بالغيظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض فى اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالـمًا لهم أو قليل الإنصاف.

١٧ ـ إن المرء قد يزول حبه أو تفنى مودته لإنسان، فلا يرى فى زوال حبه، وفناء مودته، خيانة منه لذلك الإنسان ولا غدرًا به، ولا نقصًا فى نفسه، أما إذا زالت مودة إنسان له فإنه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدرًا ونقيصة وخيانة، حتى أنه قد ييئس من صلاح الناس والحياة، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق مع أنه كان لايرى فى تغيره للناس مضايقة لهم ويتألم. وكان لايرى فى تبدُّلِه للناس أبدالاً ألـمًا لهم، ولا يفطن إلى أن ذلك الخلق منه من الأثرَة وحب الذات الذى

يبيح لنفسه مالا يبيح للناس، وينعى ويعيب على الناس مالا ينعَى ولا يعيب على نفسه.

١٨ ـ كثيراً مانخطئ فنظن أن عهدى الطفولة والصبا هما عهدا البراءَة والطهارة والخلو من الكذب والخداع. وعندى أن كثيراً من الكبار لايتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار. وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمور ينبغى ألا تجوز عند أحد أو تنطلى أو تختفى أو تُلَبَّس، وكلما كبر الإنسان تَعلَّم كيف يقْدِر الحق، وكيف يميل إلى البساطة إلاّ إذا ظلَّ المرء أشبه بالطفل فى كبره، وكم من كذبة من صغير السِّنِّ أجَّجَتْ نار عداء بين الكبار، والكبار ينسون ما كانوا عليه فى صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم، ولا يصدقون أن صغيرهم الطاهر البرىء كاذب فيقبلون قوله على علاته، ويمعنون فى العداء بسببه، ولعلَّ عجز الصغار أمام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو أهوائهم وقلة خبرتهم بأمور الحياة أمور تدعوهم إلى عدم المبالاة إذا اعتزموا الكذب وتهيئ لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم. وأمثال هذه الأمور هى التى تحملهم على سلوك ما ينافى سذاجة الصغر وما يجافى طهارته ـ ثمَّ هم إذا فوجئوا فى هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحِدَّةٍ. وهذه الدهشة وهذه الحدّة يشتبه فيها البرىء وغير البرىء.

١٩ ـ مما يزيد المرء اعتقاداً فى عظمته، ويسهِّله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتملقهم إياه فيلبس لباس العظمة الذى يلبسه إياه من حوله، وهم إذا أقنعوه بعظمته لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمته على الأقل إلى أن ينالوا مايريدون، والرجل المتواضع الذى لايرى فى نفسه عظمة إذا عُرض لهذا التأثير فإنه قد ينتهى بأن يظن فى نفسه العظمة. والمشاهدون لأمثال هذه المحاولات ينتهى بهم الحال إلى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبى فى خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التى يؤسسونها لغيرهم. ولولا هذا الانخداع الأشعبى ما اشترك أكثر الناس فى الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها.

٢٠ ـ من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل إلى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غبره، فكذلك قد ينفر إنسان من مودة إنسان آخر ويصيبه مرض إذا ذاق مودة هذا الإنسان، بينما يذوق غيره تلك المودَّة ويستطيبها فيلتهمها التهامًا ويصح على ذلك ولا تدرى سببًا ظاهرًا معروفاً لهذا الأمر.

٢١ ـ كما أن عبَّاد الشيطان يعبدونه، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه، كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء، فيطلونها بطلاء يخفيها، ويرون أنه ليس من الكياسة واللباقة والآداب وصف أخلاقهم، حتى ولو كان وصفًا عاما، ولكنه كالحز فى المفصل. ويعدون ذلك من كره الواصف للإنسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضًا بسيئاتهم... أما إذا كانوا يريدون الأذى لإنسان زال تحريم ماكانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفطنون إلى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم.

٢٢ ـ إن حكمة الله الخفية قد تقضى أن يقهر أهل الخير والفهم، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر، ومن أجل ذلك ينبغى أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة، وأن يخشع أمام إرادة الله وقسمة الحظوظ التى تقضى بذلك وألا يغتر بنصيبه من الحياة فإنه أشبه بما يسمى (اليانصيب)، فالحياة كثيرًا ما تكون كالاقتراع: هذا ينال الدمقس والحرير والقصور المشيدة، وذاك نصيبه الخرق البالية، ومعاشرة الكلاب الضالة. ولكن الإنسان قلما يؤمن بذلك، بل يرى أن كل إنسان نال ما يستحقه من الطيبات، فمن حرم منها كان حرمانه دليلاً على نقص وعيب، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزيلاً دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب. ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه ما زهدنى فى الهتاف للناجحين ومن السير فى ركابهم. وسواء أرأيت محافظ المدينة ذاهبًا إلى وليمة فى قصر المحافظة أم رأيت سجينًا يقاد إلى المشنقة فإنى لا أغترّ بظواهر الأمور، بل أنظر فى نفسى، وأنظر فى نفوس

الناس، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم منى نفساً، ولست أعظم نفسًا من الآثم الذى يسار به إلى الهلاك، وأن الأول لو ربِّى كما ربِّى الثانى لكان مثله.

٢٣ ـ يقول بعض المتكالبين على النجاح: (النزاهة أحسن وسيلة للنجاح) ولو اطمأن الرجل غير النزيه إلى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد فى أن يكون غير نزيه، وبعضهم يرددها وهو غير آخذ بسنة النزاهة كى يظن من يعامله أنه أخذ بها، ولعله يرددها كى يأخذ الناس بها، فيربح من نزاهتهم ثم يحرمهم الربح من نزاهته.

٢٤ ـ ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائى، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تُداهِن وتداجى من غير تَعَثُّر أو ارتباك؛ ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات، وأن يكسبها جمالاً ومحبة. وقد مرت المرأة فى عصور طويلة كانت فيها فى حاجة إلى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداهنة.

٢٥ ـ قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم، وهو يحاول إخفاء ذلك، كمن يشرب الدواء المُرَّ للضرورة فى هدوء واستسلام، ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعانى من مضض، وإن أنكر ذلك، وقد يستعين بقطعة من السُّكَّر ليزيل به مرارة الدواء، كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة السكر كى يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه.

* * *

نظرات بلزاك[1]

ـ ٢٥ ـ

قال ستيفان زفايج إن الصفة الغالبة على أبطال قصص أونوريه دى بلزاك القصصى الفرنسى الشهير هى صفة الطمع والوصول إلى الغاية حتى ولو أدّت إلى الخيبة، وهذه الصفة ربما نمت فى نفس بلزاك، لأنه عاش فى شبابه فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أعظم محاولة، وكانت له أطماع تحدوه إلى أقصى غاية، ثم خسر كل شىء فى سبيل الوصول إليها. ومن الجائز أن يكون الأمر كما ذكر زفايج، كما يجوز أن يكون بلزاك بطبعه يميل إلى ذلك. وقد حاول أن يصل إلى أقصى غاية فى تأليف القصص واستيعاب العالم والنفوس فى قصصه، فضحى حتى بالحب فى هذا السبيل، وكان يشتغل فى كثير من الأحايين أكثر ساعات يومه فى تأليفها، فهو راهب من أجل الفن. وكان يلبس لباس الراهب، وقد أحبَّ مدام هنسكا سنين طويلة ثم تزوجها، ولكنه مات بعد زواجه منها بأشهر قليلة.

وبالرغم من ميل بلزاك إلى الإطالة فى الوصف أو فى البحوث القانونية أو العلمية فإن له قدرة عجيبة فى قصص المأساة، وقد أجاد فى القصص القصيرة كما أجاد فى القصص الطويلة، ويصح أن يسمى أبا الفن القصصى الحديث، فمنه أخذ فلوبير، وعن فلوبير أخذ جى دى موباسان وغيره.

ويصح أن يسمى أبا الفن الواقعى، وذلك لأن آحاد قصصه كما قال بودلبير: كانوا مثل المدافع المحشوة بذخيرة المتفجرات، فهم أيضًا كان حشوهم الحيوية والعزيمة.

---

(١) المقتطف، ١ نوفمبر سنة ١٩٥٠.

وقد يدهش القارئ من كثرة قصصه ومن كثرة إجادته فى الكثير منها، ولانظن أن أحداً صنع مثل ذلك غير شكسبير فى شعر القصص التمثيلية.

ومن قصصه الشهيرة قصة (الأب جورنو) و (قطعة من جلد الحمار الوحشى) و(الأحلام الضائعة) و (البحث عن الحق المطلق) و (سيزار بيروتو) إلخ...

ومن قصصه القصيرة قصة (الجلاّد) الفردوجو، وقصة (غرام فى الصحراء)، و(آية فنه)، و (مأساة على شاطئ البحر)، (المرانا) إلخ...

وكان بلزك يعيش مع آحاد قصصه كأنهم وكأنهنَّ أحياء ويقاسمهم مسراتهم وأحزانهم، ومسراتهنَّ وأحزانهنَّ، فقد زارهُ صديق فوجده مهمومًا، وابتدره بلزاك قائلاً: لقد قتلت المسكينة نفسها، فذعر الزائر حتى عرف أنها إحدى بنات الخيال فى قصصه.

وهذا يذكرنا بفلوبير؛ فإنه عند ما وصف هلاك (مدام بوفارى) بالسم ظهرت عليه أعراض التسمم. وخسر بلزاك مالاً كثيراً بالرغم من دقة وصفه لطرق التمول والاغتناء فى قصصه.

عاش بلزاك للفن، ولا نظن أن أحداً فعل فعله، إن السير والترسكوت كان يقضى أكثر وقته فى كتابة القصص حتى أوقات المرض والألم، ولكنه تزوَّج وخلف خلفًا واتصل بالأمراء وأولم الولائم، فلم يعش مترهبًا كما عاش بلزاك. ومع ذلك فإن بلزاك الراهب فى الحب والحياة، والذى قال لجوتييه: إن المرأة تلهى صاحب الفنّ عن فنه - هو الذى وصف النساء أدق وصف كما وصف الرجال من طبقات مختلفة، ووصف أعمالهم وخواطرهم وأفكارهم.

وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب:-

١ - قد يفقد الإنسان كل إيمان بنجاح أمله، ومع ذلك يظل متعلقاً بالأمل متشبثًا به بالرغم من فقدان الإيمان بنجاحه، وإنما تعلقه بالأمل بعد أن يفقد الثقة به توقع منه لفرصة غير منظورة تجلبها له الحياة، وهذا التشبث يعينه على تحمل كثير من مكاره الحياة.

٢ ـ ليس لكل حادثة أثر واحد وعاقبة لاتغير مهما تغير الذين تقع بهم الحادثة، فإن المصيبة التى قد تستبعث قوى العبقرى وملكاته وإن أرهقته قد تقضى على رجل آخر وتردى ذوى العزيمة الضعيفة فى الحضيض، كما انها قد تكون فرصة كسب وربح للرجل المستيقظ الذهن لوسائل الكسب وحيل الربح.

٣ ـ إذا كان نسيان العاجز ضعفًا ونقصًا، فإن من النسيان ماهو قوة فى النفوس العظيمة المبتكرة؛ فإن نسيانها مثل نسيان الطبيعة التى تنسى كى تستجد الأمور وكى تبتكرها.

٤ ـ إن من أخطاء الشبان أنهم يشعرون أن كل إنسان مهما كان عمره ينبغى أن يكون عند حيويتهم ونشاطهم وآمالهم وثقتهم بالأمور، وهم لايستطيعون إلاَّ أن يشعروا بهذا الشعور، لأنهم يرون الحياة ووهج الشباب منعكس عليها.

٥ ـ إن النساء اللواتى يكتسبنَ بصيرة بالمستقبل إنما يكتسبنها من وعيهنَّ للحاضر من الأمور. وتَنَبُّهِنَّ ناشئ من دقة جهازهن العصبى التى تمكنهنَّ من بحث وتفسير مظاهر الفكر والإحساس. وهنّ باستدلالهنَّ على المستقبل من الحاضر، إنما مثلهنَّ مثل الملاَّح الذى يستطيع برؤية السماء أن يرى ماهو مخبوء عن غيره من مطر أو إعصار أو صحو.

٦ ـ كل عصر له ميول وكل بيئة لها نزعات، ويستطيع الرجال الماهرون الذين عندهم ملكة الربح والتيقظ لوسائل الكسب والاستعداد النفسى له، أن يتاجروا بميول عصرهم ونزعات بيئتهم مهما كانت نبيلة تستدعى التضحية.

٧ ـ إذا انحرف حظ الرجل وساءت حالته فإنه قد يصير لعبة لأحقاد الناس وأهوائهم، ومن الخطأ أن يتعرض لتلك الأعاصير الإنسانية، وأن يجعلها تدفعه كل مدفع. كما تكون الريشة فى مهب الريح. وإذا أراد السلامة فليقبع كما يقبع المنكبُّ على الأرض كى يتجنب شدة الريح وعصفها حتى تمر الإعصار، وإذا وقف فإنما ينبغى أن يقف كى يعرف من أية جهة تهب الأعاصير ليستطيع تجنبها.

٨ ـ إننا دائماً نخيب ونخفق من الجانب الذى أضعفناه من أنفسنا، أو استرسلنا فى ضعفه، إن كان خلق معنا الضعف.

٩ ـ يخطئ من يظن أن الحيوانات لاتشعر بالذعر والألم شعورًا شديدًا كالإنسان، فإن الحيوانات المنزلية قد تصرخ من الفزع صراخًا شديدًا إذا أصابها إنسان بألم هين عقوبة لها، بينما هى إذا أصابها جرح من حركاتها فقد لاتصرخ ولا تصيح.

١٠ ـ إن القوة التى تستنفد نفسها بمجهود عنيف مباغت، تحدث أثرًا مؤقتًا أقوى فى نفوس الناس وخيالهم من قوة فى مثل مقدارها تؤثر أثرًا بطيئًا طويلاً، وهذا يصدق سواء أكانت القوة من قوى الإنسان أم كانت من قوى الطبيعة. ومن أجل ذلك صار الإنسان الذى يبذل مجهودًا عنيفًا يستهلك قوته بسرعة ومباغتة يؤثر فى نفوس الناس تأثيرًا مؤقتًا أكثر من تأثير الرجل الذى يبذل مجهودًا مثله بطيئًا طويلاً، أو مجهودًا أطول وأكبر.

١١ ـ فى بعض الناس نوع من الكبر، وهو كبر النفوس التى تفضل أن تخوض معارك الحياة وخصوماتها وحدها، ولا تظهر إلا بعد الظفر والانتصار ـ وهناك نوع آخر من الكبر وهو كبر النفوس التى توهم الناس أنها تخوض معارك الحياة وحدها، وتعمل فى خفية عن أكثر الناس فى اكتساب من يعينها على الانتصار. وهذا الكبر أكثر شيوعًا؛ لأن أكثر الناس يجبنون بطبعهم عن خوض معارك الحياة وحدهم ويهمهم الانتصار أكثر مما يهمهم أن يقال إنهم خاضوا معارك الحياة وحدهم.

١٢ ـ لا يدرك أثر الأمور التافهة فى إحداث الحوادث الهامة الكبيرة الاّ الذين تعدوا السن التى قبلها يسرفون فى بذل قوتهم الحيوية كيفما اتفق وفى أية غاية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، ولعلهم يدركون ذلك أكثر من إدراك غيرهم لبعد ما بين هذه الأمور التافهة الصغيرة وبين عظم المجهود الذى بذلوه كى يحدثوا حوادث أقل من تلك الحوادث التى أحدثتها الأمور التافهة الحقيرة.

١٣ ـ إن المجادلة والمحاجة التى يراد بها توضيح الأمور إذا لجت بها اللجاجة، فإنها قد تكسب الأمور العطيمة شيئًا من الحقارة.

١٤ ـ قد يعمر الحزن النفس الإنسانية، فيجعلها أشبه ببهو يرن فيه صوت مقدَّس يستدعى الخشوع.

١٥ ـ إن الإنسان فى عدله قلما يستطيع التخلص من مخاوفه على نفسه وعلى المجتمع، وقلما يستطيع أن يقدر الإحساسات الخفية والعوامل المستترة، فلايكون عدله مثل عدل الله الذى يعرف خافية الأنفس وهو مبرأٌ من المخاوف، فأحسن مايكون عدل الإنسان كظل لعدل الله قد حوِّر وغيِّر كى يكون مناسبًا لنفوس الناس ومخاوفها وجهلها.

١٦ ـ يعتقد الرؤساء دائمًا أنهم يستطيعون أن يخلقوا الكفاية لمن ينحازون إليهم ويرشحونهم للمناصب لإشرافهم على عملهم ـ وهذا كما قال لويس الرابع عشر لابن لوفوا الصغير عندما جعله وزيرًا فى وزارة لايدرك أمورها وطلب الشاب الإعفاء فقال لويس: سأخلق لك الدراية والكفاية.

١٧ ـ كل نفس فى حاجة إلى أن تحرث فى بعض الأحايين كما تحرث الأرض، والحوادث التى تحرث النفس تفيدها، وإن قلبتها، كما تفيد التربة الخصبة الزراعية من حرث الحارث لها.

١٨ ـ بعض الناس يريدون أن يصنع لهم الفن مالايستطيع أن تصنع الطبيعة، فهم يريدون أزهارًا من غير بذر، وفواكه من غير ثمر، وهذا شأن كثير من الناس فإنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية من غير وسائلها.

١٩ ـ إننا نخطئ إذ نظن أن الندم على الخطيئة أو الذنب دائمًا معناه التوبة، وهو كثيراً ما لايكون مصحوبًا بالتوبة، بل قد يكون ندمًا عقيمًا يؤدى إلى معاودة الذنب، وهذا الندم قد يكون مصحوبًا بلذة فى ذكرى مواقعة الذنب الماضى، ولذة فى الأسباب التى دعت إلى مواقعته بالرغم مما بالندم من آلام، وهذا يذكرنا قول الشاعر:ـ

هل الله عاف عن ذنوب قديمة أم الله إن لم يعفُ عنها يعيدها

٢٠ ـ إن السعادة والشقاء والملل والانشراح أمور نسبية؛ فقد يمل الإنسان الحياة الرتيبة الهادئة، ويمل تردد الحوادث اليومية الصغيرة يومًا بعد يوم، حتى

يصير شعوره بالملل شقاءً. بينما أولئك الذين أرهقتهم أعاصير الحياة، وكافحوا عواصفها، قد يرون كل السعادة والهناءة فى تلك الحياة اليومية والحوادث الصغيرة الرتيبة.

٢١ ـ كثيرًا ما يتسامح الناس فى الحكم على فضل ذوى النقص، بينما يشتدون فى الحكم على نقائص ذوى الفضل؛ ولعلَّ ذلك لأن فضل ذوى النقص أمر غير معتاد، فيفاجئ بالانشراح، ويتوقعون من ذوى الفضل التمام فى الفضل، إن لم تكن شدتهم فى الحكم على نقصهم حسدًا لهم. وهذا يذكرنا قول المتنبى:ـ

ولم أرَ فى عيوب الناس نقصًا كنقص القادرين على التمام

٢٢ ـ إن احترام الناس نفوسهم باحترام غيرهم، سواء أكانوا من الأكابر أم الأصاغر ـ إنما هو مانع وحاجز من الحواجز الاجتماعية التى تحمى العظيم، كما تحمى الصغير، فيستطيع كل منهم أن يواجه الآخر باطمئنان.

٢٣ ـ قلما يستطيع الإنسان أن يحكم على معاشر إلا بإحساس واحد، إما الاحترام، وإما الاحتقار. وإن وجد فى نفسه ما يستدعى كليهما، فإنه من الصعب أن يحترم الإنسان معاشرًا لصفة وأن يحتقره لأخرى. والاحترام هو الضمان الذى به يستطيع الناس أن يتعاشروا، إذا فقدت حتى مظاهره ما استطاع الناس التعاشر.

٢٤ ـ بعض النفوس كالماء الضحل القريب الغور، وهذه النفوس لا تستطيع أن تعرض علينا مآسى الحياة، وإن كانت آلامها شديدة فى تلك المآسى.

وقد ذكر مثل هذا المعنى ستيفان زفايج فى ترجمة حياة مارى انطوانيت إذْ قال: إن الرجل العبقرى قد يتعذب بالمآسى، فيزداد قدرة على التعبير عن الحياة، ولكن من سخر القدر أن يزج فى المآسى بالرجل الذى ليس عنده قدرة على استنباط ما فيها من عبر، أو فن، أو حكمة، فيتعذب من غير أن يفيد عذابه، ومن غير أن يجد سلوى فى عبقريته أو معينًا منها.

* * *

تكملة نظرات بلزاك[1]

ـ ٢٦ ـ

١ ـ إن المقياس الذى به يقاس مايستطيع أن يتحمله المرء من الآلام هو مقياس من نفسه، ومن أجل ذلك لايستطيع المرء تحمل آلام غيره مهما شاركه وعطف عليه وادَّعى حمل آلامه وعاونه.

٢ ـ إن نظرة واحدة من نظرات الغضب أو كلمة واحدة من كلمات العداء والنفور قد تمحو سعادة سنين طويلة من سنى الألفة والمحبة، ولكن بريقًا زائلاً مثلها من السرور ووميضًا قصيرًا مثل وميض البرق منه، لايستطيع أن يمحو تعاسة السنين الطويلة من سنى الشقاء، وذلك لأننا نتأثر فى سعادتنا بالألم، أكثر من تأثرنا فى تعاستنا بالسرور الوامض القصير.

٣ ـ إن السبب فى أن إحساساتنا لها حياة مستقلة ربما لانستطيع أن نغيرها أن تلك الإحساسات تتشكل وتنمو بما يناسبها من الظروف والأحوال التى أوجدتها، والأماكن التى قويت فيها واشتدت، كما أنها تنمو من نفسها بالأفكار المتصلة بها والتى كانت تشغل فكرنا عندما خلقت، وتعظم بالخواطر والهواجس التى تناسبها فى النفس.

٤ ـ ربما نزداد قوة وقدرة برعاية من هو أضعف منا وبحمل أثقاله ومعاونته على متاعب الحياة، ولعلَّ بعض من يفعل ذلك يدرك هذه الحقيقة ويلتمس الزيادة فى القدرة بهذه الوسيلة.

٥ ـ قد يحسب بعض الأقوياء أو من يدّعى القوة ويطمح إلى مراتبها أن فضيلة

(١) المقتطف، ديسمبر سنة ١٩٥٠.

القوى وفضله فى حب السيطرة، ولكن الذين يرون القوة أمرًا طبيعيا فيهم ولايباهون بها يعرفون أن فضل الأقوياء فى ألا يشغف القوى بالسيطرة التى هى دليل على فقدان الحنان والعظمة.

٦ ـ إنك لاتستطيع أن تحكم على إنسان بدراسة حوادث حياته فحسب، كما لاتستطيع أن تدرس التاريخ بمعرفة قوائم الحوادث. بل لابدَّ من دراسة أشجان ذلك الإنسان وأحزانه وعواطفه وأفكاره الخفية ونزعات نفسه وعواملها، أما دراسة الحوادث فهى وسيلة الحمقى.

٧ ـ إذا تحركت الحياة فى المرء واشتعلت نارها بقوة لم يستطع الاقتصاد من ذلك الاشتعال. بل يدعه يشتعل بإسراف فلا يستطيع أن يقيس الغاية التى يسعى إليها، ولا الوسائل التى يتخذها لها.

٨ ـ إذا كان الحب لايغتفر كل شىء فهو لايغتفر شيئًا، واغتفار الحب قد يُحْسَبُ جهلاً وغفلة، وهو ليس بجهل ولا غفلة.

٩ ـ إن صفات المكر والاحتيال والائتمار صفات كثيرة الفرص والوسائل والموارد، وقد تعرف النفس الصافية المهذبة ذلك، ولكنها لاتستطيع أن تتخلق بها حتى ولو حاولت، ولاتستطيع أن تنتفع بها، وإنما جل اعتمادها على ما قد يسعفها عفوًا من الوسائل، وما يكون باتفاق المصادفة، وليس اعتمادها على ابتكار الوسائل وصنع الحيل الناشئة من الاحتيال.

١٠ ـ إن أهل الخير قد يساء بهم الظن، ويحسبون من أهل الشر والكيد إذا كان ينقصهم الذوق السليم، فيعملون ماهو حسن طيب فى نظرهم من غير اهتمام بمعرفة أثره فى غيرهم.

١١ ـ إن الشباب يقيس المستقبل بفرجار من عنده، فإذا كانت قوة إرادة الشباب وعزيمته توافق الزاوية الكبيرة، التى انفرج عنها الفرجار فى قياسهم المستقبل كانت الدنيا لهم.

١٢ ـ كما أن فضائل الإنسان تظهر بمظهر أعظم فى البيئة الصالحة لها التى تناسبها ويكون مظهرها مظهرًا منطفئًا أو شبه منطفئ فى البيئة غير الصالحة لها، كذلك المصائب قد ترخى على فضائل الإنسان حجابًا وستارًا فتخفيها.

١٣ ـ إن أعظم العظمة وأفخم الفخامة ليست فى المرئيات والظواهر الفخمة العظيمة من أمور الدنيا، بل أعظم العظمة والفخامة فى أمور النفس.

١٤ ـ أكثر الناس فى الحياة إذا سقطوا كان سقوطهم إلى مستقر قريب، وهم فى سقطاتهم كالأطفال الذين يتألمون ويصرخون ثم ينسون.

١٥ ـ إنما تحيا النفوس بأن تعطى غيرها من نفائسها، وأن تأخذ من نفائس النفوس الأخرى، وهى قد تعطى غيرها ثم تستعيد بعض ما أعطته بعد أن تحوّله النفوس الأخرى إلى ذخائر ونفائس من عندها. وهذا التبادل ضرورى للنفس كما أن التنفس ضرورى للجسم.

١٦ ـ إن المرأة تشعر أنها تكون على أتم جمالها عندما تكون على أعظم سلطة وقدرة، وقد تنال السلطة بفتنة جمالها ـ ومن أجل حب المرأة لما يجلو جمالها من السلطة والنفوذ تحب الرجل القوى القادر حتى ولو أدت قدرته إلى ضررها.

١٧ ـ الحب كالبحر فذوو السذاجة لايرون فى الحب كمن لايرى فى البحر غير شكل ومنظر واحد لا يتعداه، أما صاحب الميزة فى الحب فإنه كالذى يرى أن البحر لايكاد يستقر على شكل واحد من أشكال الجمال بل يراه أشكالاً وألوانًا متعددة من الجمال.

١٨ ـ إن الحب يخلق للمحب ربحًا ويوهمه كسبًا من كل شىء حتى من الألم والخسارة وماهو أشد منهما، وينسيه مصائب المستقبل.

١٩ ـ الإيمان زهرة اليقين، والأمل زهرة الرغبة. والأمل خير من الذكرى؛ فإننا نعوم فى بحر من الذكريات، ولكن حبنا لابدَّ أن يغرق فيه، إما الأمل فإنه يجدد الحب كما يجدد كل نِعَم الحياة.

٢٠ ـ دوام رؤية الوجه ألفةٌ قد تمحو صفات النقص فيه؛ لأنه يطلع الرائى على صفات نفس صاحبه.

٢١ ـ كل اختراع فيه شىء من عفو المصادفة حتى ولو كان متوقعًا.

٢٢ ـ ليس الحب إحساسًا فحسب، بل هو أيضًا فن به يؤثر المحب فى قلب من يحب من غير أن يذويه، وهو يحدث أثره بكلمة أو بسكوت أو بتردد بين الكلام والسكوت أو ما شابه ذلك، ويلهم المحب متى يحسن أن يفعل أى شىء من ذلك.

٢٣ ـ كلما عظم نبل النفس ازدادت نفورًا من الخيانة والغدر حتى ولو كان فيها ربح لها.

٢٤ ـ إن المحبة الممزوجة بالأنانية والأثرة لاتنال عطفًا من الناقد البصير بها؛ إذْ أن القلب يكره الحب الأنانى الذى يعدّ ويحسب ما ربح، وهذا بالرغم من أن الحب الذى لا يحسب ما ربحه قد يكون ناشئًا فى قلب لايعرف الحياة ولا يقدر الأمور.

٢٥ ـ إن معرفة الأوقات التى يحسن فيها الصمت تحتاج إلى خبرة ولباقة كالخبرة واللباقة التى تعرف الأوقات التى يحسن فيها الكلام.

٢٦ ـ إن العاطفة النبيلة تنمو بما يغذيها من تشجيع وعطف وحنان ومودة، كما أن العاطفة الذميمة تنمو أيضًا بما يغذيها من عقد وعداوة وشر.

٢٧ ـ الزمن يعطى الصبر والعزيمة قدرة على عمل أى شىء.

٢٨ ـ لم تبتكر طريقة ولا وسيلة لرأم جرح اللفظ على صلاح وصفاء تام، وجرح اللفظ قد يكون أشد من جرح السلاح.

٢٩ ـ لايستطيع أن يعرف الأعاصير التى تثور عند قمم الجبال إلاّ من عاش بينها، وكذلك لايستطيع أن يعرف النفوس العظيمة إلاّ من كان من النفوس العظمية.

٣٠ ـ بالرغم من الأهواء العديدة التى قد تبعث الحمقى والجهلة والأغبياء إلى التغير والتقلب فإنهم قد يظهرون استمساكاً بمذهب أو حزب أو رأى واحد، وسبب ذلك أن هذا التغير من حزب أو رأى أو مذهب إلى حزب آخر أو رأى أو

مذهب قد يقتضى منهم تفكيرًا، والتفيكر فى عقولهم عملية مؤلمة صعبة مرهقة معقدة مكروهة.

٣١ ـ إن الرجل الذى فى نفسه جانب نقص لايستطيع التخلى عنه، إنما يعطى أعداءه سلاحًا يستعملونه ضده إذا استطاعوا.

٣٢ ـ إن الصفة أو الفكرة الفنية توقظ النفوس، سواء أكانت فى صنع فنى جليل أم فى جسم إنسان حى.

٣٣ ـ إن الشجاعة لباس يلبسه المرء كى يخفى به نقص نفسه وعوراتها.

* * *

obeikandl.com